الاستشراق والترجمة

د. عبد الله محمد الزيات
قسم اللغة العربية- كلية اللغات - جامعة الفاتح

الاستشراق هو تصدي الباحث غير المسلم للغة العربية والتراث العربي والحضارة الإسلامية في نصوصها وآدابها المختلفة وعلومها ولغاتها المختلفة أيضا مع التركيز على أهم اللغات في ذلك وهي العربية .

في العربية أصل المصطلح هو الجذر ش ر ق ، ومن بين معانيه الشرق ؛ حيث مَشرق الشمس ، ضد الغرب ؛ حيث مَغرب الشمس ، وفي القرآن الكريم ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾[1] ، وفيه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾[2] وعلى هذا فكأن الاستشراق هو علم دراسة الشرق أو عالم الشرق ، فالسين والتاء في الاستشراق للطلب : أي طلب الشرق ، كما يقول أحمد رضا في معجم متن اللغة [3] ، أول معجم عربي تظهر فيه الكلمة ويوضع لها شرح ، وإلا فإننا لا نظفر بهذه الكلمة حتى في معجم حديث وضعه رجال مختصون في العربية ، تحت رعاية مجمع اللغة العربية في القاهرة وهو المعجم الوسيط.

وهذا المصطلح رغم جذره اللغوي ودلالته في العربية هو مصطلح حديث انحدر من اللغات الأوربية التي اعتمد في معاجمها في القرن الثامن عشر orientalismo[4] في الأسبانية وorientalism في الإنجليزية ومهما كان شكله في اللغتين فهو يعود إلى أصل لاتيني جاء منه الفعل orientar الذي يعني وجه وأرشد ودل وهدى ، ولعل العلاقة

---

(1) البقرة 141 .

(2) الكهف 86 .

(3) دار مكتبة الحياة بيروت ، 1959 مادة ش ر ق ، 310/3 .

(4) انظر الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني ، محمد العسري ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة الرياض 2003 ، ص 32 .

واضحة جدا بين التوجيه والإرشاد والهداية والدلالة إذا أخذنا في حسابنا أن النور الحسي الذي ينبعث من الشمس يمكن أن يكون أصلا في كل تلك المعاني .

ولأن المستشرقين من غير العرب والمسلمين احتاجوا إلى استعمال الترجمة من العربية إلى لغاتهم المختلفة كثيرا، أولا لأجل أن يفهموا نصوص هذه اللغة في علومها المختلفة ، وثانيا لأن ينقلوا هذه المفاهيم في تلك الحضارة إلى شعوبهم كيفما أرادوا ، ومن ثم كانت الترجمة ضرورية لكل من خاض ميدان الاستشراق باحثا ومتخصصا في هذا الميدان ، ويحفظ لنا التاريخ أعلاما كثيرين في بدايات الاستشراق وما قاموا بترجمته من كتب عربية عرفت بعناوينها المحددة ، بل يحتفظ تاريخ الاستشراق بأسماء كل المستشرقين وما قاموا به من ترجمة للكتب العربية ، لا سيما وأن الترجمة في كثير من الأحيان هي شرط أكاديمي ليصبح المستشرق مستشرقا خصوصا عندما يتعلق الأمر بتحقيق كتاب من الكتب العربية حيث لا يقبل هذا عملا أكاديميا من المستشرق ما لم يصاحبه ترجمة النص العربي إلى اللغة الأم للمستشرق ، تقول المستعربة الأسبانية نيبيس باراديلا : "إن كل مترجمي الأدب العربي كانوا ولا يزالون من المستعربين "[1] ، أي المستشرقين .

إن الذين درسوا الاستشراق يصرون دائما على ذكر وسائله فيذكرون أن من بينها الترجمة[2] بمعنى أن المستشرقين ترجموا عن لغات أمم الشرق إلى لغاتهم ، كما ترجموا أيضا من لغاتهم إلى لغات أمم الشرق وإن كانت الترجمة في الحالة الأولى أكثر وهي المعنية بالدرجة الأولى .

فلقد بدأت الترجمة عن العربية منذ عصر قديم عندما بدأ عصر الاستعراب القديم في الأندلس ثم عندما تأسست مدرسة المترجمين في طليطلة في القرن الثالث عشر[3] ثم مدرسة سالرنو في إيطاليا في منتصف القرن السادس عشر تقريبا [4] ليتم ترجمة المصادر

---

(1) الأدب العربي في أسبانيا ، الترجمة والتلقي " نيبس باراديلا ، قضايا الترجمة وإشكالياتها ، بإشراف الدكتور جابر عصفور ، المجلس الأعلى للثقافة ، 341-354 ، 344 .

(2) انظر مثلا الاستشراق الإسرائيلي في الدراسات العبرية المعاصرة لمحمد جلاء إدريس ص59 .

(3) انظر تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل غونثالث بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس .

(4) انظر أضواء على مواقف المستشرقين ، لشوقي أبو خليل ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس 1991 ، 7 .

العربية إلى اللغة اللاتينية ، ويذكر بعض الباحثين أن مجموع ما ترجم من الكتب العربية في القرون الوسطى بلغ حوالي 300 كتاب في العلوم المختلفة [1] .

وإذا كان الاستشراق قد استعمل الترجمة ليصل من خلالها إلى فهم المضامين العربية الإسلامية ، وكل ما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، ثم ليكتب من بعد عن هذه الحضارة محللا ومعللا ومقسما ومستنتجا وذاهبا في الفهم كل مذهب يريده ، فإن الدارسين للاستشراق من العرب والمسلمين أو فلنقل فإن من يتقن بعض اللغات الأوربية ، قد اهتموا بترجمة جزء مما كتبه الاستشراق في لغاته الأصلية ، لينقلوه إلى القارئ العربي أو القارئ المسلم ، فكانت الترجمة بذلك نافذة اتصل من خلالها القارئ العربي بما كتبه الآخر عن العرب والمسلمين ورأى من خلالها أيضا كيف يتصور الآخر حضارتهم ، بل كيف يتصور الإنسان المنتمي إلى هذه الحضارة بل كيف يتعامل مع هذه الحضارة وهذا الإنسان على مستوى الفكر والبحث والنظر والتوجيه الذي يريده الاستشراق ، ومؤسسة الاستشراق ، وقد كانت ترجمة بعض هذه الأعمال التي كتبها المستشرقون في لغاتهم الأصلية مثل تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية ، أملا راود الكثير من أصحاب الأقلام في الترجمة ؛ إذ رأوه هدفا نبيلا وأملا يستحق أن يكد ذوو الهمم العالية من أجل تحقيقه ؛ بل رأت مؤسسات عربية ثقافية ذلك الهدف بتلك الأهمية التي رآها به أولئك المثقفون والمترجمون من أمثال المؤسسات الثقافية في الجامعة العربية [2] ، يقول الدكتور محيي الدين صابر وهو مدير سابق لمنظمة التربية والثقافة والعلوم:" إن تاريخ الأدب العربي لشيخ المستعربين والمستشرقين الغربيين وأكثرهم إحاطة باللغات السامية والشرقية وثقافاتها ، وأغزرهم إنتاجا فيها ؛ العالم الألماني الفذ كارل بروكلمان ، الذي قدم عملا صالحا ومعروفا جليلا للتعاون الدولي الثقافي حين كشف للعالم عن حضارات الشعوب السامية والشرقية ، ولغاتها وإبداعها الفكري والفني ، ما أغنى الثقافة العالمية وحفظ تراثا إنسانيا نفيسا"[3] .

---

(1) انظر الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ، عبد المتعال محمد الجبري ، 54 .

(2) مثل الإدارة الثقافية للجامعة العربية ومعهد المخطوطات العربية ، اللذين كانا وراء خروج ترجمة تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ننظر مقدمة المترجم التي وضعها الدكتور عبد الحليم النجار ، تاريخ الأدب العربي ، ط4 دار المعارف ، 1/ط-ع .

(3) تاريخ الأدب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القسم الأول 1-2/5 .

ومن بدهيات القول أننا قراء العربية لا نصل إلى معرفة أفكار مثل إدوارد سعيد وهو مستشرق من أصول عربية كتب كتابا يفضح فيه الاستشراق من الداخل – أو نستطيع أن نعتبره نقدا داخليا للاستشراق – وقد كتبه في الإنجليزية وترجم إلى اللغات الأوربية الرئيسية .

وكتاب مثل تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الذي وضع في الألمانية كيف كان يمكن لنا أن نطلع على ما فيه دون الترجمة التي كانت أولا مساعدة للمستشرق في أن يفهم التراث العربي فيكتب عنه هذا الكتاب في لغته الألمانية ، ثم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ليطلع عليه أبناء العربية الذين لا يعرفون الألمانية .

وقد قصد كارل بروكلمان بمصطلح الأدب العربي كل ما يمت إلى اللغة العربية وآدابها وعلومها التي كتبت فيها ، أي علوم اللغة والأدب ، والتاريخ والجغرافيا ، وتراجم الرجال وسيرهم والفلسفة وعلم الكلام والطب والصيدلة ، وعلم الفلك والرياضة والهندسة والكيمياء والفقه وأصوله والحديث ورجاله ، والتفسير والتصوف وغيرها من العلوم التي عرفتها العربية والحضارة الإسلامية ، ولنا أن نتصور فضل تأليف هذا الكتاب إذا عرفنا أنه أصبح مرجعا أساسيا لا يرجع إليه فقط المستشرقون ليعرفوا أشياء كثيرة ، بل يرجع إليه أبناء العروبة والإسلام ليعرفوا تاريخ رجال الثقافة العربية الإسلامية وأهم ما ألفوه ، وفي أي مكتبة من مكتبات مخطوطات العالم يوجد إذا كان مخطوطا ، وإذا طبع ففي أي مكان أو مدينة من بقاع العالم طبع ونشر، يقول مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي نشرت الترجمة بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب : "هذا كتاب جليل بحق ، تفخر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بأن توفقت أخيرا إلى استكمال أجزائه المتبقية ، بفضل جهود ثلة خيرة من الأساتذة الأفاضل البارزين ، الذين تولوا ترجمة ومراجعة هذا العمل مواصلة ومواكبة لما كان بذله السلف الصالح ممن باشروا إنجاز الأجزاء الأولى منه منذ مطلع الستينات "[1] .

ويضيف المدير العام معتبرا أن إتمام ترجمة هذا الكتاب وطباعته حدثا عظيما فيقول : "إن صدور هذا العمل الهام بأجزائه المختلفة سوف يمثل حدثا أدبيا دونما شك ، نظرا لأهمية الكتاب ولمكانة مؤلفه الذي كرس حياته خادما للثقافة العربية الإسلامية"[2].

---

(1) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 .

(2) تاريخ الأدب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1993، القسم الأول 1-2 /ص3 .

وكم كان سيبقى هذا التأليف غير ممكن لو لم تتم الترجمة من العربية ، التي مارسها كارل بروكلمان عندما كان يضع هذا التأليف ، ثم كم سيحرم أبناء العربية - خصوصا الباحثين منهم في الثقافة والفكر والحضارة - فضل هذا التأليف لو لم تتم ترجمته إلى العربية عندما قام أكاديميون عرب درسوا في ألمانيا بهذا الجهد المشكور، كما قاموا بترجمة كتاب آخر مهم عن الألمانية وهو في الموضوع نفسه ، أعني تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، تركي الأصل ، كان أستاذا بجامعة فرانك فورت فوضع هذا الكتاب بالألمانية وقام بترجمته عنها إلى العربية الدكتور محمود فهمي حجازي ، بل إن كتبا عديدة كتبت في الألمانية أو غيرها من اللغات مورست فيها الترجمة مرتين المرة الأولى عند تأليفها والمرة الثانية عند ترجمتها .

وقد حصل هذا في كتب عديدة ومراجع مهمة كتبها المستشرقون عن الحضارة العربية والثقافة الإسلامية ، ثم حولها أبناء العروبة إلى اللغة العربية مثل الكتاب الذي يشبه في منهجه وهدفه كتابي كارل بروكلمان وسزكين السابقين ويخالف عنهما في كونه قد اقتصر على بقعة معينة من العالم العربي الإسلامي وهي الأندلس ، وأعني بذلك كتاب تاريخ الفكر الأندلسي الذي وضعه علم بارز من أعلام الاستعراب الإسباني وهو المستشرق الأسباني آنخل غونثالث بالنثيا وقد وضع له في الأصل العنوان الذي يمكن أن يترجم ب"تاريخ الأدب العربي الأندلسي" ولكن المترجم الحصيف الدكتور حسين مؤنس ترجمه إلى "تاريخ الفكر الأندلسي" .

ومن هذه الكتب التي لعبت الترجمة بين العربية واللغات الأوربية فيها دورا رئيسا مرتين الكتاب الذي وضعه المستشرق الألماني يوهان فُك بالألمانية عن اللغة العربية وترجمه إلى هذه الأخيرة الدكتور عبد الحليم النجار، وهو من الكتب البارزة التي كتبها المستشرقون عن اللغة العربية .

وغير هذا كثير من المصادر والمراجع التي كتبت عن الحضارة العربية الإسلامية وكانت الترجمة سببا مباشرا في تأليفها ، كما كانت أيضا سببا مباشرا في اطلاع الناطقين بالضاد عليها .

وكيف عرف الناس في أوربا شيئا عن الإسلام دون ترجمة التراث العربي والحديث عنه في لغات أوربية من قبل المستشرقين وغيرهم حتى أخذت بعض الأعلام

العربية والإسلامية للكتب والعلماء أسماء أوربية في لغات القوم مثل ابن سينا وابن رشد والغزالي Avicena , Averroes , Algacel . ومعلوم أن وجود هذه الأسماء وانتقالها إلى التراث الأوربي لا معنى له دون أن تكون علومهم وأفكارهم قد سبقت أسماءهم إلى تلك اللغات التي لعبت الترجمة إلى أصلها اللاتيني من العربية دورا نشطا وفعالا فيما عرف بعصر النهضة الأوربية .

منزلقات الترجمة :

لكن لا ننسى أن الترجمة كانت منزلقا للاستشراق في بعض الأحيان ، وذلك عندما فكر كثير من المستشرقين أن كل من أتقن اللغة العربية أصبح متقنا لكل العلوم الإسلامية والعربية ، فأصبح فقيها في أحكام الإسلام ، عالما في الفلسفة الإسلامية ، ومتكلما في التوحيد وإماما في الميراث ، وسيبويه أعجميا في النحو العربي وخليلا أوربيا في علم العروض ، وزمخشريا معاصرا في التفسير ، ومتبحرا في الحديث ، يرد أحاديث البخاري ومسلم! ويتحدث عن السنة ومصدرية التشريع فيها ! يقول محمد أسد الذي بدأ اتصاله بالإسلام مستشرقا فانتهى به الاستشراق إلى الإسلام :

" لا شك أن مترجمي معاني القرآن – الذين كانت ترجماتهم تلك مدخلا للجمهور الغربي إلى عالم الإسلام – يمكن أن يعتبروا علماء كبارا؛ بمعنى أنهم تمكنوا من النحو العربي وحصلوا معارف جيدة في الأدب العربي ، ولكن بهذا القدر من التمكن من النحو وهذه الألفة أو الاعتياد للأدب العربي لا يستطيعون في حالة الترجمة من العربية ، وخاصة ترجمة القرآن ، أن يعفوا أنفسهم – باعتبارهم مترجمين – من هذا التميز البعيد المنال ، بروح لغة يمكن أن يكتسبها الإنسان فقط مع القرآن وبالقرآن " [1].

فرغم أهمية الترجمة للمستشرق فإنها في كثير من الأحيان لم تكن علمية كما ينبغي لها أن تكون ، وهذا يبدو طبيعيا إذا كان الأمر ناشئا عن قصور في الأدوات ، أو القصور الإنساني المعروف الذي يعتري عمل الإنسان لكونه إنسانا ، فيعتريه النقص ويكون محفوفا بعدم وصول إلى الكمال المنشود ، كما يعترف بعض المستشرقين أنفسهم

(1) El Mensaje del Qurán , traducción del árabe y comentarios ; Muhammad Asad, Junta ísámica ,España 2001 ,p IV.

فيما حصل مع بعض المستشرقين الأسبان في بعض المراحل التي مر بها الاستشراق الإسباني ؛ يقول مقدم كتاب "الاستعراب والترجمة ، 'Arabismo y traducción' :

"كانت هناك أوقات أخرى وجامعة أخرى ، تفتقد إلى الشيء الكثير ، حتى إلى معجم عربي إسباني من أجل إنجاز ترجمة ما ، تقريبا كلهم يتذكرون حدود وظروف تلك الساعة أو تلك الفترة ، الفقر في المواد المجبرين على العمل بها مثل المعاجم التي تنتمي إلى القرن التاسع عشر ، كمعجم بيلوت الذي نجد فيه الدّبابة تتحول إلى دب [الزاحف ذي الأربع أرجل] بدلا من الآلة الحربية المعروفة[Fórneas , San Baio de Arcos Lugo1926] ومع ذلك فإن الجامعة ما زال يفصلها عقدان من الزمان تقريبا عن التغيير، وكانت محافظة على المناهج نفسها أو الطرق نفسها ، فـ "المنتخبات القديمة" لأسين بلاثيوس أو "الاختيارات العربية للمبتدئين " لغرثية غومث ، أو إذا كنا متفائلين مفردات أو معجم ليون برتشير Vocabulario de León Bercher أو عربية القرن العشرين Du Xxéme siécle لليفي بروفنسال ، هي المقررات التي كانت تسود ميدان الاستعراب ، وما زالت تستعمل أيضا كتبا قديمة مثل مختارات ليرتشندي Lerchendi وكل أولئك المستعربين المترجمين [الذين سجلت معهم المقابلات] يتذكرون استعمال بعض الجرائد ذات اللغتين ،جريدة مزدوجة اللغة ، في الفصل أو قاعة المحاضرات ، مثل الصحيفة المغربية " النهار" وذلك لأن الحماية كانت حاضرة في المغرب وكانت ستبقى حاضرة أكثر في نفوسهم كلهم (باستثناء كروث إرناندث "[1].

وإذا كان القصور أو الخطأ في الترجمة ناجما عن تلك الأسباب فلا غضاضة من الاعتراف به ، ومن ثم أيضا قبول أسبابه لأنها تتعدى قدرة الإنسان وتتحدى جهده ، كما في حالة ما إذا كان الخطأ في الترجمة ناجما عن جهل بها وقصور في أدواتها ، ومن ذلك ما يذكره محمود الطناحي من أخطائهم الشنيعة من شرح المستشرق كارترمير للأحداث [جمع حدث بمعنى مصدر حدَث يحدُث] بالغوغاء ، وتفسير المستشرق كازانوبا للفظ أمي بشعبي ، وتفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾

(1) Juan Pablo Arias Torres y otros ; ***Arabismo y traducción***,Consejo superior de Investigaciones Cientificas Madrid 2003, p10.

بمعنى اعبدوا آدم ، وترجمة الشارع – بمعنى المشرع – بالشارع الذي هو بمعنى street o calle [1] .

لكن في بعض الأحيان نجد الأهواء الشخصية والأغراض الاستشراقية تحرف النص المترجم فتعطي معنى ليس هو الذي جاء في النص الأصلي ، بسبق إصرار وترصد للتحريف والتزييف .

فغرثية غومث من أشهر المستعربين الأسبان بل من أشهر المستعربين أو المستشرقين في العالم في القرن العشرين له تحقيقات لكتب أندلسية عديدة كما قام بترجمة كتب عربية عديدة ،وهو أول المستعربين الأسبان الذين بدأوا ترجمة الأدب العربي الحديث في إسبانيا [2] ، وكان مساهما فعالا في إنشاء أول مؤسسة أسبانية حكومية تنشأ لغرض العلاقات العربية الأسبانية والاهتمام بنوافذها المختلفة التي من بينها الترجمة ، هذه المؤسسة هي المعهد العربي الإسباني للثقافة الذي أنشأته الحكومة الأسبانية عام 1954 فكان غرثية غومث أول مدير له (1954-1958) فعمل على إصدار سلسلتين من الكتب المترجمة من العربية إلى الأسبانية ، واحدة من كتب الأدب العربي القديم بدأها بأشعار لابن الزقاق البلنسي ، والأخرى في الأدب العربي الحديث وبدأت بيوميات نائب في الأرياف [3]، فكانت هاتان الفاتحتان للسلسلتين اللتين أصدرهما المعهد من ترجمات الأدب العربي قديمه وحديثه من ترجمات إميليو غرثية غومث .

ولكن هذا المستشرق ، أو إن شئنا قلنا المستعرب ، لم يسلم من خطأ المستشرقين المتعمد ، بل نستطيع أن نقول لم يسلم من خيانة النص المقصودة ، ليس لأن الترجمة تقتضي هذا ليعطي معنى أراده النص الأصلي ؛ بل لأن المترجم أراد أن يقول معنى لم يأت في النص المترجم ، ودليلنا على ذلك بعض من النصوص التي وجدناها دون سابق إصرار بأن نتتبع ترجماته أو نرصد تحريفاته ، ولم نطلع على كل ترجماته أيضا ، بمعنى أننا

---

(1) انظر مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي لمحمود الطناحي ، ط 1 مكتبة الخانجي ، القاهرة 1984 ، ص 227 .

(2) انظر " الأدب العربي في أسبانيا ، الترجمة والتلقي " نيبس باراديلا ، قضايا الترجمة وإشكالياتها ، بإشراف الدكتور جابر عصفور ، المجلس الأعلى للثقافة ، 341-354 ، 342 .

(3) انظر " الأدب العربي في أسبانيا ، الترجمة والتلقي " نيبس باراديلا ، قضايا الترجمة وإشكالياتها ، بإشراف الدكتور جابر عصفور ، المجلس الأعلى للثقافة ، 341-354 ، 342

نفترض لو أننا تتبعنا كل ترجماته للنصوص العربية لوجدنا نصوصا محرفة كثيرة أو بالأحرى محرفة الترجمة ودليلنا على ذلك ما عثرنا عليه اتفاقا في ترجمة كتاب رسالة ابن عبدون في الحسبة .

فالرسالة المذكورة واحدة من ثلاث رسائل لمؤلفين أندلسيين يتحدثون فيها عن أمور الحسبة ، التي كانت معروفة في الحضارة الإسلامية ؛ فهي المؤسسة التي تدير ما يشبه اليوم الحرس البلدي ؛ إذ تشرف على ما يخص البيع والشراء والمعاملات في السوق من العقود والأثمان والمكاييل والموازين وعرض البضاعة ، ومن يعرضها ، ومن يتحركون في السوق وماذا يفعلون ومنع الغش والاحتيال ، إلخ ، وقد حقق هذه الرسائل الثلاث المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، ونشرها المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام 1955 ، وقد قام إميليو غرثية غومث بترجمة رسالة ابن عبدون انطلاقا من هذا التحقيق الذي عمله بروفنسال ، ولكننا نجد في هذه الترجمة تحريفات لا تدل على حسن نوايا غرثية غومث ، مثل أن يترجم قول ابن عبدون : "يجب ألا يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم ، فإنهم يترجمون كتب العلوم ، وينسبونها إلى أهليهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين" [1] .

فواضح أن ابن عبدون ينهى المسلمين أو ينهى صاحب السوق بأن يسمح للمسلمين بأن يشتروا من اليهود والنصارى أو أن يبيع هؤلاء الأخيرين الكتب غير الدينية التي تتحدث في شؤون ديانتهم ، معللا ذلك بأن اليهود والنصارى كانوا يترجمون الكتب العلمية التي يؤلفها المسلمون ويسرقونها أو بالأحرى ينحلونها إلى أهل دينهم وينسبونها إليهم ، وهي ليست من تأليفهم .

وأمر الانتحال هذا لا نتهم به جميع مسيحيي الأندلس ويهودها ، وليس بالضرورة أن يكون ابن عبدون قد أراد أن يتهم جميع مسيحيي الأندلس ويهوده أيضا ، ولكن هذا النهي دليل على أن أمر الترجمة والتزوير قد حدثا من بعض اليهود والنصارى ، ودرءا لتكراره نهى المسلمين ونهى صواحب السوق أن يسمحوا لهذا الأمر بأن يتم مهما كانت نسبة توقعه ، لكنه في الوقت نفسه أمر مشين لأهل الذمة من اليهود

(1) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، 1955 ، ص ص57

والنصارى ، واعتبره المستشرق الإسباني أمرا معيبا له وللمسيحيين واليهود جميعا أمام العرب والمسلمين الذين يجب أن تكون لهم دائما الصفات الذميمة وللمسيحيين واليهود الصفات المحمودة ، ومن ثم عمل على قلب العبارة في الترجمة فقال زاعما أن يترجمها" No deben venderse a judíos ni cristianos libros de ciencia , salvo los que tratan de su ley , porque luego traducen los libros científicos y se los atribuyen a los suyos y a sus obispos , siendo así , que se trata de obras de musulmanes"[1] وصار المعنى بترجمة غرثية لا يباع إلى اليهود والنصارى في حين أن المعنى في النص الأصلي لا يشترى من اليهود والنصارى ، ولعل الترجمة الحرفية أو الجهل بمعاني الكلمات العربية المختلفة في سياقاتها المختلفة ، هو ما أوقع غرثية في هذا الخطأ ، إذ وجد الفعل يباع فترجمه بالفعل المقابل في اللغة الأسبانية venderse في حين أن معنى الفعل يشترى ، وقد اكتسب الفعل هذا المعنى من حرف الجر "إلى" بعده ، فحرف الجر المختلف مع الفعل نفسه يعطي معاني مختلفة ؛ فـ"باع إلى" تعني البيع ، بينما "باع من" أو "ابتاع من" تعني الشراء ، فالبيع من الأضداد ؛ أي الكلمات التي تدل على المعنى وضده قال ابن منظور" البيع : ضد الشراء ، والبيع الشراء أيضا ، وهو من الأضداد" [2] ومع حرف الجر من يتمخض الفعل للدلالة على الشراء ، نقل ابن منظور عن الأزهري قوله : "قال أبو عبيد : البيع من حروف الأضداد في كلام العرب ، يقال باع فلان ، إذا اشترى ، وباع من غيره "[3] وفي القرآن الكريم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[4] أي يبيع نفسه .

ونجد انحرافا آخر لقلم غرثية غومث وهو يترجم النص العربي ويقدم مضامين حضارية تمثل كاتبا وأمة وحضارة ليس فقط مفاهيم الحضارة لأسسها ومعاييرها ومضامينها ، بل مفاهيم هذه الحضارة وأهلها للآخر وشعورهم نحوه ورؤيتهم له .

---

(1) Emilio García Gómez y Levi Provecal , ***Sevilla a comienzo del siglo XII***, Biblioteca de temas sevillanos , Sevilla 1981 , 172-3.

(2) لسان العرب : مادة ب ي ع ، 23/8 .

(3) السابق 25 .

(4) البقرة 205 .

ففي الكتاب نفسه وهي رسالة ابن عبدون ، يورد هذا الأخير فقرة يتحدث فيها عن بيت مال المسلمين وموظفيه ومصارفه التي يصرف فيها ، ومن يتصرف فيه فيقول : " ويجب أن يُنَفَّذَ منه القاضي على من يجب الأخذ منه من أجرة أو إنفاق في إصلاح ما اختل منه ، فإذا اجتمع فيه شيء وأراد الرئيس أن يَتوجَّه وجها من وجوه الخير ، مثل غزاة أو إصلاح موضع من الثغور أو مدافعة عدو عن المسلمين ، دفع إليه القاضي منه بقدر ما يراه على طريق المعونة وصلاح أمور المسلمين "[1] .

فنرى ابن عبدون يذكر في نصه مدافعة عدو عن المسلمين ، وعدو المسلمين هذا جنس يدخل تحته أنواع كثيرة ، قد يكون جزءا من المسلمين أنفسهم ؛ إذا خرج فريق عن الدولة وصار من المحاربين الذين يمكن أن يطبق عليهم الحكم الذي في قوله تعالى قَالَ ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾[2] الآية ، طبقا لتفسير هذه الآية من قبل فقهاء الدولة في ضوء قوله تعالى أيضا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[3].

وقد يكون العدو دولة أو فريقا من المجاورين الحدوديين ؛ سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودا أم مجوسا أو غيرهم ، لهذا فإن عدو المسلمين في إطار ما قصده ابن عبدون لا يمكن أن يكون محصورا فيمن سماه المترجم "مسيحي" لأن المعنى عند ذلك يختل فالعداوة ليست محصورة في المسيحية أو بمعنى آخر المسيحية المجردة ليست سببا في العداوة ، وتاريخ الأندلس يشهد على ذلك وعقلاء المؤرخين ومنصفوهم ومن بينهم مستشرقون يقرون بأن الانسجام بين أهل الديانات الثلاثة ؛ اليهودية والمسيحية والإسلام جعلهم يشكلون أعضاء مجتمع واحد ينظم علاقاتهم وواجباتهم وحقوقهم ، ضمن قوانين وأصول يتفق عليها الجميع ويرتضيها الجميع ، ويعرف التاريخ الإسلامي المصطلح الذي لا يجهله إميليو غرثية غومث وهو أهل الذمة أو الذميين ، ويعني بهم غير

(1) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، 1955 ، ص11 .

(2) المائدة 35 .

(3) النساء 58 .

المسلمين من يهود أو نصارى ممن يعيشون مع المسلمين ويسكنون معهم في بلاد أغلبيتها من المسلمين ، وأهل الذمة هؤلاء تحدث عنهم القرآن والحديث وكتب الفقهاء عن أحوالهم وحقوقهم ومعاملتهم المعاملة الواجبة التي ترعى حقوقهم وتبين واجباتهم مثلهم مثل أي شريحة أخرى من المجتمع الذي ترعاه دولة الإسلام ، والواقع التاريخي في المشرق والأندلس وفي التاريخ العربي والإسلامي المعاصر يشهد أن المسيحيين أو غيرهم من الأقليات في المجتمع الإسلامي لم تعرف تفرقة أو اضطهادا أو هضم حقوق ، بغض النظر عن بعض التصرفات الشاذة من أفراد متطرفين وأشخاص نادرين على مستوى الشعب والدول أيضا ، بل كانت الأخوة في المواطنة والجيرة والأرض والتواد بينهم وبين المسلمين هي الأمور السائدة ، ومن ثم كيف جاز لغرثية غومث أن يترجم كلمة "عدو" وهي نكرة وردت في مساق يفيد أنها جنس تشمل أنواعا كثيرة ، إلى كلمة معناها مسيحي بدل أن يترجمها بما تعنيه فعلا ؛ فعدو تترجـــم إلى enemigo وليس إلى cristiano [1] ، فهذه الأخيرة تعني : مسيحي !

وسلوك غرثية غومث في ترجمة كلمة العدو وجدنا له شبيها حديثا برز في حرب الغرب ضد العراق أو ما زعم أنه ضد نظام صدام حسين ، عندما استعمل وزير الإعلام العراقي آن ذاك كثيرا مصطلح العلوج الذي كان منسيا ، وتداول الإعلاميون العرب هذا المصطلح أيضا ، وحار الغربيون في ترجمته بل لعلهم لم يريدوا ترجمته الترجمة الصحيحة لما في معناه من سخرية بالأمريكان والغربيين مطلقا ، ممن يرون رأي الأمريكان فيما تعلق بالحرب على العراق ، فلغطوا في ترجمته إلى اللغة الإنجليزية وكان من بين الترجمات التي ترجموها إليه كلمة معناها الأعداء [2] ، لكن مع الفارق بين إرادة هؤلاء وذلك ، فالغربيون اليوم رأوا في المعنى الحقيقي لكلمة العلوج إهانة لهم ، فلذلك تجنبوا الترجمة الصحيحة ، أما غرثية غومث فيبدو أنه رأى في كلمة الأعداء معنى مطلقا لا يحقق غرضه وهو أن المسلمين يعادون غيرهم من أصحاب الديانات منذ القدم ، فلذلك ترجم كلمة العدو بأنه المسيحي ، أي أن الغربيين دفعوا معنى ذميما أراد أن

---

(1) Emilio García Gómez y Levi Provecal , ***Sevilla a comienzo del siglo XII***, Biblioteca de temas sevillanos , Sevilla 1981 ,58

(2) انظر "المعجم وثقافة العولمة " الحبيب النصراوي ، مجلة دراسات أندلسية العدد 39 ، تونس محرم جمادى الأولى 1429/ جانفي /جوان 2008 ، ص 74 .

يصفهم به وزير عربي ، أما غرثية غومث فقد أراد أن ينسب فعلا ذميما لمن هم بريئون منه .

ومن حق من يقرأ ورقتي هذه أن يتساءل : أتظن أن المستعرب الكبير يجهل معنى الكلمة العربية ومقابلها الدقيق في اللغة الأسبانية ؟

فأقول متأكدا : لا ، من المستحيل أن يجهل المستعرب معنى الكلمة ومقابلها الصحيح في العربية ، ولكن ما الأمر إذن ؟

من المألوف أن المستشرقين والمستعربين يستعملون المنهج الإسقاطي في دراستهم للغة العربية والحضارة الإسلامية فلا يفهمون هذه الحضارة وتلك اللغة إلا في إطار مركزيتهم التي يرون من خلالها العالم وحضاراته المختلفة ، وهم في كثير من الأحيان لهم مفاهيم وتصورات يلصقونها بالشرق الذي هو أمم المسلمين وحضارتهم ، ويرفضون أغلب القيم والمفاهيم والحقائق التي تمثل الحضارة الإسلامية ، بل يرون في كثير من الأحيان أن الإسلام هرطقة مسيحية ، ومن ثم فهو غير صالح لأن تقوم عليه حضارة بما فيه من سلبيات مزعومة ؛ من بينها أنه قام على السيف وانتشر بالقوة وأن معتنقيه يضطهدون غيرهم من الأقليات التي تعيش بينهم ، وطبعا من يقرأ ترجمة غرثية هذه يتأيد لديه هذا المفهوم بدليل أن من أهم مصارف بيت مال المسلمين الإعداد لقتال ودحر المسيحيين ، ولعل الغالب أن فكرة المستعرب التي يؤمن بها هي كذلك ، وترجح لهذا السبب ترجمته لهذه الكلمة بهذه المفردة بدلا عن المفردة الصحيحة .

ولعل هذا المنهج الإسقاطي الذي استعمله المستشرقون وهم يقدمون الحضارة العربية الإسلامية لشعوبهم وأبناء ملتهم هو المسؤول اليوم عما يوجد في الغرب من إسلامفوبيا Islamfobia أو غيرها من أشكال التهميش والتمييز والحقد والكراهية ، التي تحاول الشعوب الغربية أن تتحرر منها كلما اقترب الاستشراق من نقل الحقيقة كما هي دون تزوير أو تحريف ، وهو ما بدا أكثر ضرورة أمام المستشرقين في عصر المعلوماتية وأدوات الاتصال الكثيرة ، التي قربت المسافات وساهمت في كشف العديد من الأقنعة التي طالما تستر وراءها المتسترون جهلا أو عمدا .

وهذا المنهج الإسقاطي الذي أدى بالمستشرقين إلى ارتكاب مثل هذه المنزلقات في الترجمة هو ما جعل بعض المستشرقين يعد الاستشراق أسلوبا غربيا وضعه الغرب

مستهدفا السيطرة على الشرق وبسط سيادته عليه . أو على الأقل ، هو ممارسة الغرب نشاطات ومذاهب سياسية على الشرق من أجل بسط نفوذ الأول على الثاني والسيطرة عليه[1] .

(1) انظر الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ترجمة محمد عناني ، رؤية للتوزيع والنشر ، 2008 ، ص 42-45 .